

«أنا لم أكن معنياً بتقديم سرد فلسطيني أو سرد قومي، لأنني لم اعتبر نفسي قط مؤيداً للفلسطينيين أو العرب، أو معارضاً لإسرائيل أو اليهود. بل اعتبرت نفسي دائماً باحثاً وبصيغة تقليدية».

لعل هذا التصريح الواضح الذي يُطلقه نورمان فينكستين أن يلخص مسيرة هذا المثقف الأميركي المميز. فطوال مسيرته الأكاديمية حاول فنكستين أن يبحث عن الحقيقة، وأن «يقولها في وجه القوة»، على نحو ما دعا الى ذلك صديقه وأستاذه نعوم تشومسكي منذ الستينات. ولم يكن يعنيه أن يكون مؤيداً لهذا الطرف أو ذلك، بل كان دأبه أن يواصل درب أولئك المثقفين التقليديين - بالمعنى النبيل للكلمة - الذي نقّبوا في المراجع والجرائد والسجلات ونشرات الأخبار العتيقة لكي يَجْلُوا عن وجه الحقيقة صدأ الأيام، وخرافات السلطات، وانحيازات مؤرخيها.

وربما كان أهم ما يميّز «تقليدية» فنكستين النبيلة أنه يؤمن بأن ثمة حقيقة قابعة في مكان ما، لا أنها غير موجودة إلا في أوهام المثقفين وعقولهم. فثمة شعب هندي أصلي طرد، ودُبح، وألغى من خارطة بلاده؛ وثمة شعب فلسطيني طرد، ودُبح، ويُراد له - بشتى وسائل القمع والحيل السياسية - أن يُلغى من خارطة بلاده هو أيضاً. وأما «وجهات النظر» الأخرى - الإسرائيلية الاستيطانية، والأميركية الإمبريالية - فليست أصواتاً أخرى تضيف الى الحقيقة شيئاً، بل هي مجرد أكاذيب وخرافات تلمس وجه الحقيقة من أجل مزيد من السيطرة والسُّحق والإلغاء العرقي.

وعلى الرغم من أن فنكستين يؤكد أنه لم يعتبر نفسه أبداً مؤيداً للفلسطينيين أو العرب، فليسمح لنا أن نوكد له أنه من أخلص المؤيدين وأصفاهم ضميراً وأجهرهم رأياً. فليس - في حد علمي - باحث أميركي يكره الصهاينة في الولايات المتحدة كما يكرهون نورمان فنكستين. وقد حدث أن حضر ذات يوم في مركز الشرق الأوسط في جامعة كولومبيا في نيويورك - حيث كنتُ ما أزال طالباً - فشتمه الصهاينة ولم يدعوه يُتم محاضرتة، بل نعتوه بأوصاف «الاسامية»، رغم أنه يهودي ومن أب وأم نجوا من غيتو وارسو ومعسكرات الإبادة النازية. ويمنع فنكستين إلى يومنا هذا من أن يحصل على منصبٍ راقٍ في أي جامعة يكافئ جدارته الأكاديمية الفائقة التي يشهد لها كبار أمثال نعوم تشومسكي وإدوارد سعيد، منذ اللحظة التي قرّر فيها أن تكون أطروحة الدكتوراه التي قدّمها في جامعة برنستون نقضاً لأساطير صهيونية متمثلة في كتاب جون پيترز: منذ زمن سحيق.

على أن فنكستين لم يسمح لنفسه إلا أن يجهر أيضاً بمقته الشديد للقيادة الفلسطينية العرفاتية، التي بددت - في رأيه - نضال الشعب الفلسطيني وأزهقت انتفاضته الباسلة. بل هو يذهب في البحثين اللذين ننشرهما هنا، كما في المقابلة المشوقة التي تتبعهما، إلى أن معاهدة أوسلو هي التتويج الأخير للغزو الإسرائيلي، وربما بداية نهاية فلسطين برمتها.

غير أن أهم ما يميّز عمل فنكستين في السنتين الأخيرتين هو ربطه بين العقلية الإمبريالية الأميركية والعقلية الاستيطانية الإسرائيلية. وهو، من هذه الناحية، يذهب الى أبعد مما ذهب إليه تشومسكي نفسه في كتابه الممتاز المثلث المصيري، لأنه يتوغّل الى نصوص روزفلت وفان بيورن وبول روجن وباربور وأندرو جاكسون وغيرهم من قادة الولايات المتحدة ومؤدجيتها «البيض»، ليكشف عن تشابه الحجج التي ساقها هؤلاء لاستعمار أراضي الأصلانيين، والحجج التي ساقها ويسوقها اليوم القادة الصهاينة لمواصلة استعمار فلسطين.

وأخيراً، فإنّه ليس من العيب ولا التجني أن تتركس الآداب في الذكرى الخمسين لنكبة فلسطين ثلاثين صفحة كاملة تنضح بالنقد لمعاهدات أوسلو. ذلك لأننا نؤمن أن لا معنى للحديث عن هذه الذكرى إلا بالحرص الشديد على حتّ الفلسطينيين على إلغاء هذه المعاهدات المشينة التي تُقرض الأرض من تحت أقدامهم في الوقت الذي توهمهم فيه أنها تعطيهم «استقلالاً ذاتياً».

إن نكبة فلسطين ليست في تحالف إسرائيل مع الغرب فحسب، بل هي كذلك في ارتداء حفنة من قياداتها السياسية عند أعتاب الحل الأميركي. ولنتذكّر، مع فنكستين، أن الأمر لا يتعلق بالنوايا الحسنة لهذا القائد أو ذلك من القيادات المستسلمة (التي تعصى أحياناً، وعلى سبيل التمويه، وأمر أسيادها!)، بل بمسار كامل من إرضاء الغرب طمعاً بمكاسب شخصية تافهة.